الهجرة النبوية الشريفة

الظروف والملابسات

بدأت الاستعدادات للهجرة منذ اللحظات التي أدرك فيها الرسول(ص) أنَّ مكة لا تصلح لقيام الدولة، وأنَّها لم تعد ساحة خصبة للعمل الدعوتي والتبليغي، ولذلك نراه بدأ نشاطاً واسعاً ومشهوداً إثر خروج المسلمين من حصارهم القاسي في شعب أبي طالب. وكان ذلك في ظلّ وضعٍ متردٍّ ومواجهة لم تهدأ من الدين الجديد الذي رفض بشكل حاسم كلّ قيم الوثنية وأهدافها وتقاليدها ومصالحها. فكانت الطائف ـ كما رأينا ـ التي صدّ، عنها صدّاً قاسياً، وقد ناله فيها من الأذى والمكاره ما لم يُلحق بسواه، ولكنَّ ذلك لم يوقف تحرّكاته، بل ربَّما زاده إيماناً بضرورة تبليغ رسالته ونشرها في كلّ أرجاء المعمورة، وواصل اتصاله دون كلل أو ملل بالقبائل الوافدة إلى مكة، مستفيداً من فرصة إقبال النّاس عليها في مواسم الحج، ليعرض عليهم الدين الجديد، طالباً منهم أن يمنحوه الحماية وأن ينصروه، ولكن أيّاً من القبائل (بنو كندة، بنو عامر،بنو صعصعة، بنو حنيفة... الخ) لم تمدّ يد المبايعة له ولم ترحب بهجرته إليها.

إعداد / مركز المعلومات

يثرب قبل الهجرة

ويمضي الرسول (ص) في بحثه عن المكان الذي سيُهاجر إليه وأصحابه ليكون منطلقاً للدعوة وبناء الدولة المحتوم. وقبل المُضيّ في الحديث عن الهجرة، لا بُدَّ من الإلفات إلى الأوضاع التي كانت تلف كلاً من يثرب الموطن الجديد للمسلمين، ومكة التي لاقوا فيها صنوف العذاب وموورست فيها بحقّهم مختلف أنواع الاضطهادات.

كان أهل يثرب يمتازون عن سائر المناطق العربية بجوارهم لليهود، وألفتهم عقيدة التوحيد، وربَّما حاورهم اليهود في شؤون الأديان وعابوا عليهم عبادتهم للأوثان، وكان كلما احتدم النقاش واشتدّ الحوار قالت اليهود لهم: "يوشك أن يبعث الله نبيّاً فنتبعه، ونقتلكم معه قتل عاد وإرم...».

واللافت أنَّ اليهود كانوا أول من حارب النبيّ (ص) وكفروا به، وقد ندّد القرآن الكريم بمسلكهم الذي يتناقض مع عقيدة التوحيد، ولما كانوا يخبرون به: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدّق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به﴿البقرة:٨٩﴾.

أمّا العرب في يثرب فقد آمنوا بالرسول (ص) وآووه ونصروه ووقفوا إلى جانبه في أشدّ الأوقات صعوبة وأكثرها حراجة، حيث قال بعضهم لبعض عندما سمعوا به: "والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه».

وحلّت في يثرب مشاعر المحبة والتقدير والاحترام، مكان الحقد والكراهية والنفور من الدعوة الجديدة في مكة.

أمّا من الناحية الاقتصاديّة والاجتماعيّة، فقد كانت مكة تعيش في بحبوحة من العيش أمداً طويلاً، آمنة مطمئنة، يأتيها رزقها رغداً من كلّ مكان. وترجع أهمية هذه السعة إلى أمرين أساسيين: مهارة أهلها التجارية، ومكانة الحرم الدينية، ما أدر عليها الخير، فتعالت واستكبرت وساد فيها الترف والمجون،كما أنَّ ذلك أعطاها أهمية سياسيّة تجسّدت في إقامة الأحلاف التي تتزعمها قريش، ما جعلها توسع من نفوذها المعنوي والسياسيّ إلى مختلف القبائل التي تعيش في البادية.

وكان الرسول (ص) يحاول دائماً أن يُقنع أهل مكة بأنَّهم لن يحرموا من هذا العيش الرغد إذا اعتنقوا الإسلام، فأبوا ذلك، وأجابوا: ﴿إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرماً آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون﴿القصص:٥٧﴾.

أمّا يثرب فكانت على النقيض من ذلك تعيش أوضاعاً صعبة، حيثُ الشحناء المتأصلة بين أهليها استنزفت دماءهم، وقطعت أوصالهم. وما زاد الوضع حدّة، دخول اليهود على خطّ الأزمة، فأذكوا هذه الصراعات والحروب التي كان آخرها وقعة (بعاث) التي كان فيها النصر للأوس، وهي المرة الأولى التي يحرز فيها هؤلاء النصر على الخزرج ، وبلغ من حدّة الخصام بين الفريقين، أنَّ كليهما فكّر باستئصال الآخر وإبادته لولا أنْ تدخل أولو النهي بالنصح بالإبقاء على أنفسهم وإخوانهم.

ومن الناحية الاقتصادية، كانت يثرب تعتمد على الزراعة كمورد أساسي، فضلاً عن القيام بتجارة متواضعة إذا ما قيست بالتجارة القرشية، وذلك في ظل سيطرة المال اليهودي على مقوّمات الحياة فيها، وهذا ما دفع أهالي يثرب إلى أن يأملوا بالإسلام خيراً عندما سمعوا بالرسول(ص) وبدعوته.

أمّا عن اللقاء بين الرسول(ص) وأهالي يثرب، فكان في السنة العاشرة للبعثة، حيث جاء نفرٌ من يثرب إلى مكة قاصداً الحج، فالتقوا به عند العقبة، وعرض عليهم الرسول(ص) مبادئ الإسلام التي تدعو إلى إقامة العدل والمساواة بين الناس، وإلى توحيد الله عزّ وجل، فما كان منهم إلاّ أن لبّوا الطلب، وأعلنوا إسلامهم، ووعدوا الرسول(ص) بأنَّهم سيرجعون إلى يثرب ويبشرون بدعوته وقالوا: "إنّا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى الله أن يجمعهم بك... فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزّ منك"، وقفلوا عائدين إلى بلدهم، وراحوا يدعون قومهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبقَ دارٌ من دور الأنصار إلاّ وفيها ذكر رسول الله (ص) ، وما ساعد في هؤلاء الرواد والذين أعقبوهم على التحرّك لنشر الدعوة في يثرب، أنَّ الأوس والخزرج في تلك الفترة ـ كما يبدو ـ كانوا أصحاب الكلمة العليا في يثرب.

العقبة الأولى:

وفي السنة التالية، التقى الرسول (ص) وفي المكان نفسه، بوفد ثان من أوس يثرب وخزرجها، اثنا عشر رجلاً من بينهم الستة الذين أسلموا من قبل جاءوا لا ليعلنوا إسلامهم هذه المرة، بل ليبايعوا الرسول (ص) في ما سمي ببيعة العقبة الأولى على الإسلام، على "أن لا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصونه في معروف"، وأرسل معهم داعيته الشاب مصعب بن عمير لكي يتولى شؤون الدعوة والتثقيف العقائدي هناك.

ونجح "مصعب" أيّما نجاح في نشر الإسلام وجمع النّاس عليه، واستطاع أن يتخطى الصعاب ويعمل بلا كلل أو ملل، وعندما اقترب موسم الحج من السنة الثانية عشرة للبعثة، غادر مصعب يثرب، وعاد إلى رسول الله (ص) بمكة، قبيل الموسم الحافل، واجتمع به وعرض عليه نتائج مساعيه في يثرب، وأنَّه عمّا قريب سيلتقي بوفد كبير منهم تقرّ له عينه ويطمئن به باله.

العقبة الثانية:

انطلق في السنة الثانية من يثرب ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان واجتمع بهم الرسول (ص) في العقبة أيضاً، واتفق معهم سراً أن يوافوه في الثلث الثاني من الليل، حين ينام الناس وتغفل العيون... يتسللون إليه واحداً واحداً واثنين اثنين، وتمت البيعة الثانية، وعرفت بـ"البيعة الكبرى"، وكانت هذه المرة على الحرب والسلم، ومدّوا إليه أيديهم مصافحين، ومقسمين بالله الواحد الذي آمنوا به أنَّهم سيحمون الرسول (ص) وينصرونه، وأنَّهم سيرفعون السّلاح مدافعين عنه بوجه أيّ قوّة في الأرض، سوداء كانت أو حمراء، تسعى إلى الفتك به وبدعوته وأصحابه.

وقبل أن يرجعوا اختار الرسول (ص) من بينهم اثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ليشرفوا بأنفسهم على سير الدعوة في يثرب، حيث انتشرت دعوة الإسلام هناك وكثر معتنقوه.

وعلمت قريش بما جرى، فاعترضت بعض أهل يثرب الذين باتوا يعرفون بالأنصار: وقالت لأحد المبايعين ممن التقتهم: "يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنّه والله ما من حيّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم"! ولكن أحد اليثربيين حلف بالله لهم أنه لم تتم مبايعة الرسول(ص) ونفى هذا الأمر، ما دعاهم إلى تصديقه.

ولما كان اليوم التالي تأكدت قريش من صحة الخبر، فنفرت في طلب القوم، فلم يدركوا سوى اثنين: سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو، فأمّا المنذر فقد أعجز القوم، وأمّا سعد فأخذوه وأوثقوه رباطا حتّى أدخلوه مكة وبدأوا بتعذيبه، لكن سرعان ما تذكر اثنين من تجار قريش، كان يجيرهما لدى مرورهما في يثرب ويحميهما ممن كان يريد ظلمهما هناك، فاستجار بهما فهرعا إليه وخلصاه من أيدي القرشيين، فانطلق إلى يثرب ليلحق برفاقه الذين سبقوه إليها».

وبدأت قريش تشدّد من قبضتها على المسلمين في مكة وتزيد من اضطهادهم، بعدما رأت تجاوب أهل يثرب معهم، وأصاب المسلمين جهد شديد جعلت الرسول(ص) يفكر جديّاً بأمر الهجرة إلى يثرب.

دوافع الهجرة

أصدر الرسول (ص) أوامره إلى أصحابه بالهجرة، مختفين متفرقين قدر الإمكان، وتنادى المسلمون من كل مكان هلموا إلى يثرب، فلم تكن الهجرة تخلصاً من الفتنة والاستهزاء فحسب، بل كانت من أجل التعاون على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن. وأصبح فرضاً على كل مسلم قادر أن يُسهم في بناء هذا الموطن الجديد، وأن يبذل جهده في تحصينه ورفع شأنه، وأصبح ترك المدينة ـ بعد الهجرة إليها ـ نكوصاً عن تكاليف الحق، وعن نصرة الله ورسوله، فالحياة بها دين، لأنَّ قيام الدين يعتمد على إعزازها.

وفتح القرشيون يوماً أعينهم على مكة التي كانت عامرة بأهلها من المسلمين فإذا هي قد أقفرت، والمحال المؤنسة قد أمحلت، وكعادتهم أنحى القرشيون باللائمة على النبيّ(ص)، وقد تجلّى ذلك بقول أبي جهل للعباس: "هذا من عمل ابن أخيك، فرّق جماعتنا، وشتت أمرنا وقطع بيننا...».

ومن اللافت أنَّ المهاجرين قد خلفوا وراءهم أموالاً ونساءً وبيوتاً وأطفالاً وشيوخاً ومتاعا كثيرا، ذلك لأنَّ الهدف الذي هاجروا لأجله أغلى بكثير من كلّ متاع الدنيا.

قريش تحيك خيوط المؤامرة

وشعرت قريش بأنَّ الإسلام أضحت له دار يأزر إليها، وحصن يحتمي به، وأصبح ذا منعة وقوّة وبأس، فتوجست خيفة من عواقب هذه المرحلة الخطيرة في دعوة محمّد (ص)، وهو لا يزال في مكة، ولكنّه لا بُدَّ مدرك أصحابه اليوم أو غداً، فما عليها إلاّ أن تعجل به قبل أن يغادرها... فاجتمعت زعامات قريش في دار الندوة، وتداولوا في أمر التخلص منه، وطرحت آراء باعتقال الرسول (ص) وتكبيله بالأغلال أو بنفيه بعيداً في منقطع الصحراء. ولكنَّ هذه الآراء جوبهت بالرفض لأنّها لم تكن ذات جدوى، وأخيراً أخذ برأي أبي جهل الذي قضى بقتله وتفريق دمه بين القبائل، وإن طالبتهم بنو هاشم بدمه فسيشيرون إلى العشائر جميعاً وإلى سيوف أبنائها، حيث تقطر دماء الرسول، وعندها تكون بنو هاشم أعجز من أن تطالب بدمه وقتال العشائر كلّها.

وقد كشف القرآن الكريم خيوط هذه المؤامرة بقوله: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴿ (الأنفال:٣٠) وعزم الرسول (ص) على ترك مكة إلى المدينة، فألقى الوحي الكريم في قلبه وعلى لسانه هذا الدعاء الجميل: ﴿وقل ربّ أدخلني مُدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدُنك سلطانا نصيرا﴿ (الإسراء:٨٠)، وكان الرسول (ص) ينتظر من الوحي الإشارة بالتحرّك بفارغ الصبر، وبالرغم من يقين الرسول (ص) بالله عزّ وجلّ وبأنّ الله يرعاه، لكنّه أحكم خطة الهجرة وأعدّ لكل فرض عدّته، فاختار الإمام عليّ (ع) لكي يؤدي مهمة مزدوجة؛ أولاها: المبيت عَلى فراش النبيّ (ص)، وثانيها: ردّ الأمانات إلى أهلها.

ومن الجدير ذكره أنَّ مبيت عليّ (ع) على فراش النبيّ (ص) ليلة الهجرة لم يكن المرة الأولى، فلقد بات من قبل مكانه يوم حاصرتهم قريش في شعب أبي طالب، وكانت يومذاك تفكّر في اغتيال النبيّ (ص) وتحاول أن تدسّ بعض سفهائها لتنفيذ تلك الفكرة، وأحسّ أبو طالب بمؤامرتها، فأمر بني هاشم بحراسة الشعب ليلاً ونهاراً لئلا يتسلل إليه أحد، فإذا جاء الليل كان يأمر محمّداً(ص) أن ينام على فراشه في وقت مبكر من الليل لكي يراه الجميع أين ينام، فإذا نام النّاس وهدأت الأنفاس أجلسه ونقله إلى فراش آخر بعيداً عن فراشه الأول وأضجع أحد أبنائه في مكانه، كما جاء في رواية ابن كثير.

أمّا في ما يخص أبا بكر، فقد جاء في كتب السيرة أنَّ رسول الله (ص) أمر أبا بكر وأحد أصحابه أن يقعدا له في مكان حدّده لهما في طريقه إلى الغار، ولبث مع عليّ(ع) يوصيه بالصبر، ولما خرج في ظلمة العشاء من بيته والقوم محيطون به أو من بيت آخر كما جاء في رواية ثانية، مضى في طريقه حتى التقى أبا بكر وصاحبه، فنهضا معه ودخل هو وأبو بكر إلى غار ثور (يقع في جبل خارج مكة، نسبة إلى ثور بن عبد مناف، لأنه ولد عنده) ورجع صاحب أبي بكر متخفياً إلى مكة، وجدّت قريش في طلب النبيّ(ص) ووضعت عليه العيون والجوائز الكبار لمن أدركه فقتله أو ردّه إلى مكة، أو أرشدهم إلى مكانه.

ولما دخل النبيّ (ص) وأبو بكر الغار، قضت مشيئة الله سبحانه وتعالى أن تنسج العنكبوت على بابه وأن تلتجئ إلى باب الغار حمامتان بريتان.

قريش تلاحق الرسول(ص)

وانطلق مشركو مكة في آثار المهاجرين يرصدون الطرق، ويفتشون كل مهرب، وراحوا ينقبون في جبال مكة وكهوفها، حتى وصلوا قريباً من غار ثور، وأنصت الرسول (ص) وصاحبه إلى أقدام المطاردين تخفق إلى جوارهم، فأخذ الروح أبا بكر، وقد واكب الوحي هذه الرحلة، وجاء في قوله تعالى: ﴿إلاّ تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنّ الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيّده بجنود لم تروْها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم﴿ (التوبة:٤٠).

وجاء في كتب السيرة أنّهما أقاما في الغار ثلاثة أيام وكانا قد استأجرا دليلاً ليقطع بهما المسافة إلى يثرب على غير الطريق العام مخافة أن يدركهما طلب قريش، وكان الدليل عبد الله بن أريقط الليثي وهو لا يزال على شركه، ولكنَّ النبيّ(ص) قد وثق به وأمن من غدره، فلمّا حان موعد خروجهما من الغار أتاهما الدليل ببعيريهما وأخذ بهما إلى طريق الساحل.

وجاء في مروية ابن سعد في طبقاته أنَّ النبيّ (ص)، بينما هو في طريقه إلى يثرب عرض له سُراقة بن مالك بن خثعم الذي رسخت قوائم فرسه في الأرض، ولكن فرسه لم ينطلق إلاّ بعد تدخل من قبل رسول الله، وعندما عاد سُراقة وجد النّاس يلتمسون رسول الله(ص) فقال لهم: ارجعوا فقد استبرأت لكم خبره فلم أجد له أثراً، فرحبوا، وتابع ركب النبيّ(ص) طريقهم يقطعون السهول والجبال والأودية، ويتحملون حر الهاجرة ورمال الصحراء وجهد السير خلال سبعة أيام من رحلتهم قطعوا بها القسم الأكبر من المسافة بين مكة والمدينة وأصبحوا في أمان من خطر قريش.

وما يلفت النظر، أنَّ انطلاق الرّسول (ص) من مكة شاع بين القبائل العربية وعرف به البدو والحضر على طول الطريق إلى يثرب، وكذلك ترامت أخباره وصاحبه إلى المدينة، فكان أهلها يخرجون كل صباح يمدون أبصارهم إلى الأفق البعيد، ويتشوقون إلى مقدمه بلهفة.

وفي اليوم السابع عشر من ربيع الأول، وفي بعض الروايات الثاني عشر من السنة الثالثة عشرة للبعثة، وصل الرسول وصاحبه إلى يثرب، حيث جرى لهما استقبال حافل من قبل أهل المدينة، الذين كانوا ينتظرون بمقدمه فاتحة عهداً جديداً، كتب لهم شَرف وضع أسسه التي سيقوم عليها البناء، وبالتحديد إقامة الدولة.

ثُمَّ كتب رسول الله(ص) من المدينة إلى عليّ (ع) كما جاء في بعض الأخبار، فلمّا أتاه كتاب النبيّ(ص)، ابتاع ركائب لمن معه من النِسوة وتهيأ للخروج، وأمر من بقي في مكة من ضعفاء المؤمنين أن يتسللوا ليلاً إلى ذي طوى، وخرج عليّ(ع) بالفواطم، وهنّ فاطمة بنت رسول الله (ص)، وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب، وفاطمة بنت حمزة، كما نصّ على ذلك بعض المؤرخين، وتبعتهم أم أيمن مولى رسول الله (ص) وأبو واقد الليثي، فجعل أبو واقد يسوق الرواحل سوقاً حثيثاً، فطلب منه (ع) أن يرفق بهنّ ثُمَّ جعل يسوق بهنّ، فلمّا قارب ضجنان أدركه الطلب، وكانوا ثمانية فرسان ملثمين، ولكن علياً(ع) فرقهم وأبعدهم عن الركب، ومضى بالسير حتّى وصل إلى المدينة.

أمّا في ما يخص النبيّ(ص)، فكان قد نزل في بني عمرو بن عوف، فأقام فيهم أربع عشرة ليلة أسس خلالها مسجد قباء وهو أول مسجد أسس في الإسلام، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحقّ أن تقوم فيه فيه رجال يحبّون أن يتطهروا والله يحب المتطهرين﴿(التوبة:١٠٨).

وهكذا فقد اعتبر تاريخ الهجرة حدثاً مفصلياً في تاريخ الإسلام، حيث انتهت معه مرحلة العذاب والاضطهاد، وفتح الآفاق على مرحلة جديدة واجهت فيها الرسالة الإسلامية التحديات وقلبت فيها المعادلات، ليس على صعيد شبه الجزيرة العربية فحسب، بل على صعيد العالم المعروف آنذاك، وأسست لأنموذج اجتماعي جديد دكّت من خلاله كلّ الصنميات والوثنيات، وأقيمت مكانه دولة تنطلق من أسس التوحيد والتكافل والتعاون في سبيل الخير...